من نكبات الحزبية فى تاريخنا

للأستاذ سعيد الأفغانى

ليس هذا خوضاً فى السياسة ، فأنا امرؤ سناء ظنه فى محترفيها جميعاً ؛ وعلى أنى منذ خمسة وعشرين عاماً مولع بتتبع أحداثها فى الأقطار العربية وخاصة فى الشام ومصر ، شغف بعشرة الخبيرين بخفاياها . لم أخضها يوماً من الأيام كفاحاً وجهاً لوجه لا أنفة منها ، ولكن أنفة من حال الخائضين فيها . وإذا سألتنى عن السر فى تضييع الفرص على الشعوب العربية وحرمانها من خير لم تقصر فى السهر عليه والجهاد له ، أجبتك : « إنه فى داء واحد فى الأقطار جميعاً هو : أخلاق القادة ! »

ارجع بصرك فى أحداث الثلاثين سنة الأخيرة ، فستجد أن قطراً من الأقطار لم ين عن جهاد صادق سنة من هذه السنين ، ولم يبخل على قضيته بنفس ولا نفيس . لقد بذل فى سبيل ربه ووطنه دماءه وأمواله بسخاء كان مضرب الأمثال ، ولكن المتصدين للقيادة بهم داء الكلب والتناحر وصغار النفس والتعلق بالسفاسف ، لا يخافون الله فى أمة طوحوا بها فى المهالك من أجل تمتع بمنصب أو جاه أو مال ، أو تلذذ بقهر منافس أو معارض ... غير خجلين من أن يمدوا أيديهم ضارعين إلى أجنبى وصلوا إلى زعاماتهم بمجاهرة أمتهم بعدائه ، وهو يتربص بهم يوماً كهذا اليوم تقودهم فيه ضعة نفوسهم إليه صاغرين ، فيضرب بهم مستقبل أمتهم ويضيع عليها ثمرات نضالها الطويل ، ثم ينبذهم من بعد ذلك إليها نبذ النواة ، فإما أن يكون الله كشف عن بصيرة الأمة فجعلتهم نكالا ، وإما أن يستغلوا (طيبتها) ثانية فيستأنفوا زعامة من جديد .

ولست أطمع فى صلاح نفوس الساسة اليوم ، فالله وحده هو الذى يحيى الأرض بعد موتها ، ولكنى قوى الأمل فى الأجيال الناشئة التى لم تشهد أيام الإذعان لسيطرة الاحتلال ، ولا عاينت لعب صبيانه بلحى كبارنا وساستنا ، وإنما شهدت كفاح هذه القوى الشريرة فنشأت على الإباء والنضال .

إنى لأغتنم فرصة احتفال (الرسالة) بالعام الهجرى الجديد ، فأضع تحت أبصارهم عبرة ماثلة لا تنسى أبداً عسى أن يذكروها كلما حاول من سبقوهم أن يجعلوا منهم وقوداً لفتنة تضرمها الأهواء والنزوات ، أو كلما نزغ بهم فى المستقبل نزغ يحيد بهم عن خير أمتهم إلى إرضاء أهوائهم ، فيذكروا هول الخلاف الذى صلينا جحيمه فى صدر دولتنا وما تزال مرارته الأليمة فى كل نفس خيرة تدبرت عبر التاريخ .

إنى لا أخوض سياسة ، وإنما أطلع هذه النفوس المعصومة على عواقب أول خلاف سياسى فى الاسلام وما جر من ويلات متتابعات ، ناقلا إياه من كتاب انتهيت قريبا من عمله . وأنا أحب أن يجعل الناس بالهم أبداً — كلما قرأوا التاريخ — إلى عبره وتجاربه فيأخذوا من كل شىء أحسنه ، ويربأوا بأنفسهم وأمتهم أن يغامروا فى تجربة ثبت ضررها وفسادها وخاصة إذا كان الثمن الذى قدمناه فيها دماء عشرات الألوف من أبطالنا :

لقد كان أمر المسلمين الأولين عجباً من العجب : امتلأت نفوسهم بكل ماجباهم ربهم من خير فى الإسلام ، فأحسنوا فهمه وأحسنوا الإستجابة لرسوله نساء ورجالا . فوطدوا أركانه فى الجزيرة ، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه واندفع هؤلاء المسلمون الأخيار فى أقطار الأرض يريدون إعلاء كلمة الحق وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان : من شرور الظلم والجهل وامتهان الإنسان ؛ فخر الله على أيديهم بلداناً وشعوبا كثيرة ، فأشركوا الناس كافة فى سعادتهم وعدلهم وأمنهم . ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاماً فقط يأكل بعضهم بعضاً ويعدو قويهم على ضعيفهم ، قبائل متعادية ، وطوائف ينزو بعضها بعضاً ... عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذى ألف بين قلوب ما كانت لتتألف ؛ وأدرك المعجزة التى أتى بها الإسلام فى توحيدهم وخلقهم خلقاً جديداً جعل من سفكة الدماء أنبياء رحمة ورسل هداية وإسعاد للبشر .

لقد أتوا — وكلهم واحدة — بالعجائب فى حروب التحرير والفتح ثم البناء والتنظيم ، وكان منهم كل الخير لأنفسهم ولغيرهم فلما صبت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيديهم ، وتقادم ما كان جديداً من روعة الدين وعهد الرسول وصاحبيه ، وكان أمر الشورى المعلوم ، وكثرت فى هذه الإمبراطورية الواسعة المناصب

والولايات ... بدأت نوازع الطموح تتحرك فى نفوس هؤلاء الأبرار فيكبتونها رهبة من الله . لكن عناصر الشر والنش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المغلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهى الخبيرة بمداخل الشر ومخارجه ، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين فى الذروة والغارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون ، ودب دبيب الخلاف بينهم واشتغل بعض ببعض ، ووقفت الفتوح أيام على رضى الله عنه حتى خيف على المسلمين من فلول الروم .

أرأيت مايفعل الخلاف فى الدولة القوية الفتية المتماسكة المتينة الآساس ؟ .

إنه يطمع فيها حتى المغلوب المشرف على الدمار ، دع ما أريق فى سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رحمه الله ، ثم ارفدت بدماء عشرات الألوف . وهذا (يوم الجمل) وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير فى بضع ساعات ، فلا تسل عما بعده من (يوم النهروان) و (يوم صفيرة) وغيرهما من تلك الأيام التى أعملنا فيها سلاحنا فى أنفسنا فأوقعنا الوهى فى دولتنا والتفرقة فى صفوفنا والعداوة فى قلوبنا ... وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف.

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين ... اجتمعت على الخير فسارت إلى قوى الشر شرقاً وغرباً لأكلت الدنيا بقوتها ، ولأحالت العالم حينئذ جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان . لكن الله الذى أبد هذه الأمة أول أمرها قضى أن يكون بأسها بينها ، فامتلأ تاريخنا بالحروب الداخلية وتحول عن مجراه السعيد الذى كان جرى فيه لخير الإنسانية عامة ؛ قضاء من قضاء الله لاحيلة فيه . ولست أدرى ما يكون حال دنيانا الآن لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن ولم تنزل بأسها بينها ؟

ولو ذهب باحث يحصى هذه الدماء المهراقة فى سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم ، فى الشرق والمغرب والأندلس ... إذاً لأفزعته هذه الملايين منها ، ملايين لو بذلت فى سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف ، ولكنا أهل الحضارة حتى الآن وإلى الأبد لا يلم بشمسنا أفول .

وقد خاف رسول الله صلى عليه وسلم على أمته آثار الخلاف ، فسأل ربه — فيما سأل — أن يجنبهم إضراره ، إذ علم أن هذه القوى الهائلة المتراصة التى عمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلا كفيلة بفتح الأرض كلها لدعوة الخير والحق ، لاتقف لها قوة إلا أن تنشق هى على نفسها فرووا عنه أنه قال : سألت ربى ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة :

سألت ربى ألا يهلك أمتى بالسنة (القحط) فأعطانيها .

وسألت ربى ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها .

وسألت ربى ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها . »[1]

ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

« ٠ »

انقضت الخلافة والخلاف بخيرها وشرها ، ولم يبق منها إلا هذا التاريخ بين أيدينا مملوءاً بالعبر : فلنتعظ به ، ولنحذر أى تفرقة بيننا بكل مانستطيع ، ولتكن تلك الدماء الذاهبة ضياعاً حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة ، فلا نميدن فاجمتها جذعة ، ولنهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجرب فإنهما يبدآن صغيرين لا يؤبه لهما ثم يعظمان حتى يلتهما الأخضر واليابس .

وإن أعجب لشىء فلأولئك الذين مازالوا يجتمعون ويتفرقون متجادلين فى هؤلاء الصحابة الأخيار : أيهم المؤمن وأيهم الكافر ؟ أيهم على الحق فيحمد وأيهم على الباطل فيذم ؟ ويتقربون إلى الله فى لعن رجال : ما منهم أحد إلا وله السوابق الحسان فى نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله والدفاع عن رسوله ، وما فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام ، فخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على تراخى أطرافها . إنها وحدة جامعة عجزت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة عشر قرناً عن أن تنال منها مايقضى عليها ويمحوها ؛ فما زال العراق إذا هبط أقصى المغرب فى مراكش لايحس بغربة عن أهل ولا وطن . أستغفر الله ، بل ما زال المسلم الصينى من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة فلن يفرق أحد ماجمع الله بمحمد وصحبه .

---

(١) صحيح مسلم ٧ — ١٧١ (الاستانة سنة ١٣٣٣ هـ) وانظر مسند أحمد ١ — ٢٥٥ .

لست بسبيل تعداد المآثر المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة ... ، فأصغر أعمالهم عند الله يمحو كل ما يذكر خصومهم من أخطاء ، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذي أرضوه بأعمالهم ورضي عنهم ، وسجل رضاه هذا في قرآنه الكريم يتلى ما بقي على الأرض إنسان .

فلنمحضهم جميعاً محبة واحدة ، ولنستغفر لهم ولأنفسنا ، ولنذكرهم بكل خير جزاء ما خلقوا لنا من وحدة قوية ، ودولة مثالية بنوها بجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، جهاداً أرخصوا فيه مهجهم ونحوا بأعز ما يملكون ؛ ولنطرح عن عواتقنا مخلفات عصور الانحطاط والشعوبيات ، ولنقتد بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعض لذكر بعض ، فقد نزع الله ما في صدورهم من غل وعادوا إخوانا متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا .

وإن الله عز وجل لم يتعبد أحداً بشتم صحابي ولا لعنه ، بل عظم من شأنهم وغفر لهم ما أخطأوا قبل أن يخطئوا ، ولولاهم لكان العرب اليوم في وثنية أو جاهلية ؛ فما هذا جزاء من أنقذنا به من الضلال والفرقة وخلف لنا ماضيا سعيداً وماضياً مجيداً وتاريخاً حافلا بكل ما يرفع الرأس ويخلد أحسن الذكر وأطيب الثناء ...

* * *

فرقت السياسات قديما أمر المسلمين وشتت شملهم ، ثم عززها أهل الكيد والدس بنشهم حتى جعلوها تتغلغل في الأديان والعقائد ، وصار الدين الواحد أدياناً والأمة الواحدة طوائف شتى وما الأمر كله بالذي يستدعي بعض ذلك ، فلنأخذه بالتوسعة والتسامح ، ولكل رأيه في السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيقن أحد بفهم أخيه ، ولا نجعلن خلاف الرأي في السياسات الماضية (والحاضرة) والحزبيات البائدة (والحاضرة) مفرقا وحدتنا وصادعاً شملنا ومخمداً نارنا ، ولا نجعلن هذه الأحقاد والعداوات تتوارث إلى يوم الدين .

إن الأمم من حولنا كالجياع على القصاع ، فلن يجدينا في موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة ، بخويصة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل ، وفي مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق ... فلنقابلها صفا واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله ، ولننبذ عصور الظلام وآثار الجهل وضيق الأفق بمخلفاتها جميعا .

إن ربنا واحد وكتابنا واحد ورسولنا واحد ، فلنعد أمة كما أراد الله لنا ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وفرقة . فالظروف عصيبة ونحن على مفترق الطرق ، وإننا لمحاطون بالأعداء داخلا وخارجا ، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا ؛ فلا نعينهم على أنفسنا ، ولا نضعن في أيديهم السلاح الذي يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائغة .

* * *

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلا ، ولا جعل بأسنا بيننا ، وليت هذه السابقة التي هونت على الأمة الواحدة أن يقاتل بعضها بعضاً لم تكن قط .

فليت الظعينة في بيتهـــا ... وليتك (عكر) لم ترتحل[1]

ثم ليتنا بعد هذا كله نعتبر بما في الخلاف من ضرر بالغ في كبير أمرنا وصغيره[2] !

سعيد الأفغاني

---

(١) عكر إسم الجمل الذي ركبته السيدة عائشة على رأس جوعها في أول فتنة قسمت العرب في الاسلام صفين متعادين .

(٢) الفصل الأخير (عبرة الحوادث) من كتابنا (عائشة والسياسة) وسيطبع قريباً إن شاء الله .

لم يبق في إدارة الرسالة

إلا نسخ محدودة

من كتاب:

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

فبادر إلى طلب نسختك من دار الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد